مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العـدد: 3 (2022)، ص: 799-819

القُوةُ وَالتّنازعُ: مَنْطِقُ الوُجُودِ وَالعلاقاتِ الدَّوليّةِ بينَ الفَلسفةِ النِيتشويَّةِ وَالواقعيّةِ السِّياسيّةِ

power and conflict: the logic of being and international relations between nietzschean philosophy and political realism

بوجاوي ناصر الدين [1]

[1] المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)،

boudjaouinacereddinephilo@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/14 تاريخ القبول: 2022/09/04 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

يَتناولُ هذا البَحثُ مُقاربةً تفسيريةً اضطلعَ بها نيتشه في فَهمِ الوُجودِ بِعامّةٍ وأعلامُ الواقعيّةِ السياسيّةِ في فهمِ السياسةِ الدَّوليّةِ بخاصّةٍ وَتقومُ هذهِ المقاربةُ عَلى مفهومِ إرادةِ القوةِ. وَلقدْ ترتّبَ عن اتّخاذِ القوةِ مبدأً تَفسيريًا العديدَ منِ الاسْتلزاماتِ مِنهَا تَبعيّةُ التوازنِ للنَّسقِ الفَوضويّ للدّولِ وَجوهرانيةُ الصّراعِ وَحتميةُ السّيطرةِ. وَقدْ طرحنَا علَى ضوء هذا كُلهِ إشكاليتين أساسيتين وَهما: مَا طبيعةُ المساعِي إلى القُوةِ؟ وَما الذي يَلزمُ عنهَا وجودياً وَدولياً ؟.وَقَدْ اتّبَعْنَا للإجابةِ عَنْ الإشكالاتِ المطروحةِ ثلاثةَ مَناهِجَ: المنهجَ الفينومينولوجيَّ للوقوفِ على معنَى المبدأِ (إرادة القوة) كما يتبدّى في نُصوصِ نيتشه وَالواقعيينِ السياسيينِ، المْنهجَ التحليليَّ لِتشريحِ المفاهيمِ الكُبرى لِكلٍ مِنَ المقاربتينِ، المنهجَ التركيبيَّ لإعادةِ بناءِ مُعطياتِ البحثِ وَفقَ نظَرةٍ بِنيويّةٍ. وَخلُصْنَا إلى كونِ إرادةِ القُوةِ غَريزةً أصليّةً مُتجذِّرةً في الوُجُودِ (نيتشه) وَالنَّسقِ الدّوليّ (أعلام الواقعيّة السياسيّة) وَإلى مَفعوليّةِ التَّوازنِ وَظرفيّةِ السَّلامِ.

كلمات مفتاحية: إرادةُ القوةِ، السَّيطرةُ، الصِّراعُ، الفَوضَى، تَوازنُ القِوى.

Abstract:

This paper deals with a fundamental concept undertaken by Nietzsche to explain being in general and by the theorists of political realism to develop an explanation of international politics, this concept is none other than the will to power considered as a principle. We have posed two fundamental problems: How to define the nature of this principle, and what are the consequences that follow from it? To answer this question, I adopted three methods: the phenomenological method to grasp the meaning of power in Nietzsche and the realists, the analytical method to examine the major concepts of two approaches, and the synthetic method to reconstruct the data under a structural view. We concluded that the will to power is an original drive rooted in being (Nietzsche) and in the international system (political realists) and that the balance of power is only a passive effect and peace is only ephemeral.

Keywords: Will to power, domination, conflict, anarchy, balance of power.

***المؤلف المرسل:** بوجاوي ناصر الدين

1. مقدمة

ممَّا لا ريبَ فيهِ في الدوائرِ البحثيّةِ، أنَّ الكَثيرَ من رُوادِ الواقعيّةِ في العلاقاتِ الدّوليةِ قدْ تَأثروا بِالعديدِ مِنْ الفلاسفةِ الكلاسيكيين، كَانَ لهمُ الفَضْلُ في تَشَكّلِ العَقل الغربيّ فِي مُختِلفِ فُروعِ المعرفِة، وَالكثيرُ مِن الواقعيينَ نَهلوا مِن فلاسفةِ واقعيينَ علَى اخْتِلافِ مَشاربِهم، أمثال ثوسيديديس Thucydide وهوبس Hobbes وماكيافيلي machiavel، وذلكَ فِي سَبيلِ بِناءِ وَدَعمِ الخطوط العريضةِ مِنْ نظَرياتِهم السِياسيّةِ الدَّوليّةِ. يَتجلّى هذا التأثيرُ فِي الاستعانةِ بِالمقدّماتِ المنطقيّةِ وَالأونطولوجيّةِ ذاتِ المنحَى الفلسفيّ؛ وَذلكَ فِي سبيلِ بَسطِ مُقاربةٍ

واقعيّةٍ تَتعلَّقُ بِطبيعةِ الإنسانِ وَالسُلطةِ بِعامةٍ، وَتَرتبطُ بِالدَّولةِ وَالوَسطِ العالَمِيّ الذِي تَتدافعُ فيهِ الدُّولُ كَوَحَداتٍ أسَاسيّةٍ مِنْ حَيْثُ هِيَ قِوَى تُكَوّنُ المجالَ الدَّوليَّ بِصِفةٍ خَاصّةٍ.

لَكنْ مَا يلْفِتُ الانتباهَ أكثرَ مِنْ غَيْرِهِ وَيَدعونَا إلى النَّظرِ في مَدَى التَّقاربِ بَينَهُ وَأطروحاتِ الواقعيينَ هُو الفَيلسوفُ نيتشه؛ فَهَذَا الفَيلسوفُ الذي تَتَخلّلُ رُؤاهُ مِن البدايةِ إلى النِّهايةِ النَّظرةُ الواقعيّةُ للعالمِ هُو الذِي أثَّرَ أيّمَا تأثيرٍ فِي المنَظّرِ الأشهرِ وَالأكثرِ تَأثيراً فِي الواقعيّةِ الحديثةِ والمتمثّلِ في هانز مورغانتو، وَهُو الشَّيءُ الذِي يُقِرُّ بهِ فريي كاتِبُ سيرتِهِ الفكريّةِ (Frei, 2001, p 94)؛ وَلاَ يَخفَى علَى أحَدٍ ذلكَ التّأثيرُ الكبيرُ الذِي ظلَ مورغانتو يمارسِهُ فِي الدِّراساتِ السياسيّةِ في حَقلِ العلاقاتِ الدَّوليّةِ، وَما يَزالُ لحدِّ السَّاعةِ يَسْتَرعِي الانْتِبَاهَ.

(Griffiths, 1955, pp 35-77) (Gellman 1988, pp 247-266)

نَبتغِي، فِي سياقِ المقارنةِ بَينَ مَفْهُومِ القُوةِ لدَى نيتشه وأعلامِ الواقعيّةِ السياسيّةِ، البَحثَ عنِ الدَّورِ الذِي اضطلعَ بهِ نيتشه فِي صياغةِ مُورغانتو لِمَفْهُومِهِ عنِ القُوةِ مِنْ جهةٍ، وَبَسْطِ مِنْ جهةٍ أخْرَى، مَواضِعَ الاتّفاقِ وَمواطنَ الاخْتلافِ بينَ التّصوُّرِ الفَلسفيّ لِلْقُوةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَبدأٌ أونطولوجيٌّ يتجلَّى في مختلِفِ أصعدةِ الوُجودِ بمَا في ذلكَ الحياةُ السِياسيّةُ وَالتَّصوُّرِ الأنثربو-السياسيّ لهَا مِن حَيثُ هِيَ مبدأٌ مُلازمٌ لِلطّبيعةِ البَشريّةِ وَالنَّسَقِ الدَّوليّ، وَالتِي بِموجبِهَا تَكُونُ ماهيّةُ السياسيّةِ نُزوعاً إلى القُوةِ. فَإلى أيّ مدًى كانَ مورغانتو مَدِيناً لِنيتشه فِي صياغةِ أسُسِ مُقاربتِهِ الواقعيّةِ؟ وَكيفَ يُمكنُ لِنيتشه أنْ يُسْعِفنَا فِي فهمِ أكثرَ عُمْقاً لأعْمالِ مورغانتو، وَيُعينُنَا علَى تَسْليطِ المزيدِ مِنَ الإيْضاحِ علَى العُمقِ الأونطولوجيّ لِلْواقعيّةِ السِياسيّةِ بِعامّةٍ ولِمفْهُومِهَا الرَّئيسِ المتمثّلِ فِي القُوةِ؟

2. مُقَارنةٌ بَينَ مَفْهُومِ القُوةِ لدَى نيتشه وَمورغانتو: مَواطِنُ الشَبَهِ وَمَواضِعُ الفَرقِ

1.2 اللقاءُ وَالوِفاقُ الفِكريُّ بين نيتشه ومورغانتو

قَبْلَ الشرُّوعِ فِي المِحْوَرِ الثانِي مِنْ هذَا المقَالِ فِي اسْتِظهارِ مَفْهُوم القُوةِ لدَى الواقعيّةِ السياسيّةِ، فِي صِلتهِ بِالمفاهيمِ السِياسيّةِ الأخْرَى مِثلَ المصْلحةِ وَالفوضَى، وَقَبلَ أنْ نُمْعِنَ فِي بَسطِ هَذَا المفهومِ لدى نيتشهِ، سَنبدأ قَبلَ كُلِ شَيءٍ فِي إقامةِ الدّليل علَى التّأثيرِ الذِي مَارَسهُ نيتشه فِي أعلامِ هذهِ المدرسةِ أصَرَّحُوا بِذلكَ أم أضْمَرُوهُ؛ لا سِيّمَا فِي رائدِهَا الأكبر هانز مورغانتو.

لا يُمكنُ لِقراءة نيتشه، كمَا يَشهدُ علَى ذلكَ كبارُ الفلاسفةِ وَالمفكرين وَالأدباءِ، أنْ تكونَ قراءةً نَمرُّ بِهَا علَى نُصوصِهِ مُرورَ الكرامِ، بلْ قراءةً تجعلُ القارئَ يَذُوبُ داخلَ رؤاهُ وَتأمُّلاتِهِ وَبَدَلاً مِنْ العُلوِ عليهَا يَجدُ نفسَهُ قَدْ عُلِيَ عَلَيهِ، وَلم يَشُذّ مورغانتو عَنْ هذا بِمكانٍ، إذْ إنَّهُ، وَهُو فِي رَيَعانِ شبابِهِ حِينَمَا كانَ طَالباً فِي كليةِ الحُقوقِ، ألفَى نَفسَه مُلْتَهَماً مِنْ قِبَلِ أفْكارِ نيتشه، بينَمَا كانَ يَتَصَفَّحُ أوّلَ مرةٍ مُصنَّفَ نيتشه "تأملاتٌ فِي غيرِ أوانِهَا" فِي 1926. (Frei, 2001, p 99)، وَعَدَّ علَى الفورِ نيتشه تَوأمَ روحِهِ *kindred soul* وَرَجُلاً يَحمِلُ أفْكاراً وَانطباعاتٍ مُدْهِشةً، وَمَا انْفكَ يجدُها مَألوفةً فِي نَفسِهِ (Frei, 2001, p 99) وَكَتبَ إثرَ ذلكَ فِي دَفْتَرِهِ اليوميّ بِأنَّ ذلكَ ألّفَ اكْتِشافاً رائعاً وَعَدَّ هَذَا اللقاءَ الصُدفةَ التِي أسْعَدتْهُ فِي حياتِهِ أكثر مِنْ أيّ شَيءٍ آخرَ، وَعَبَّرَ عن ذلكَ بتَعبيرٍ لافِتٍ دَعَا فيهِ إلى وُجُوبِ قِراءتِهِ يوميّاً كَيْمَا يُحقّقَ المرءُ أعْظمَ الأشياءِ وَلِعيشِ حَياةٍ أفضلَ (Frei, 2001, p 99). لَقَدْ فَتحَ نيتشه على مورغانتو آفاقاً جديدةً وَعَاضَدَهُ فِي اعْتِناقِ نَظرةٍ لاَ أخلاقيّةٍ عنِ الواقعِ تَفهمُ العَالمَ كمَا هُو مَطروحٌ هُناكَ بِلاَ تَلفيق وَلا تَجْميلٍ، لاَ كمَا يجبُ أنْ يَكونَ أو كمَا تُملِي عَلينَا آمالُنَا أنْ يَكونَ عليهِ.

وَنَظراً لجرأةِ نِيتشه علَى النَّظرِ الوَاقعيّ فِي أعْمَاقِ الإنْسَانِ وَمَا يَصْنَعُهُ مِنْ مُنظماتٍ وَمُؤسَّسَاتٍ وَإعْجابِ مورغانتو بِهَذا النَّحوِ في التأمُّل وَالتَّعليلِ فيمَا وراء الشَّمائلِ الأخلاقيّةِ، اعْتكفَ رائدُ الواقعيّةِ السياسيّةِ مورغانتو طيلة أربعينَ شَهْراً بِلا هوادةٍ وَلا كللٍ لِلْعمَلِ على أعمالِ نيتشه الكاملةِ. (Frei, 2001, p 99). لا شَكَّ أنَّ مورغانتو قدْ خَالَفَ نيتشه، حِينَمَا صَرَفَ اهْتمامَهُ عَنِ السّياسةِ العُظمَى والإنسانِ الأعلَى وَالتَّغييرِ الجذريّ لِلثَّقافةِ والمجتمعِ، إلاَ أنَّهُ لم يَملكْ إلا أنْ يَتلُوَ تِلْوَهُ فيمَا يخُصُّ الإلحاحَ علَى ضرورةِ التَّمييزِ الأنموذجيّ بَيْنَ المهامِ المعْيَاريّةِ لِلْفِكرِ وَالمهَامِ الوَصْفيّةِ between the descriptive and normative tasks of thought، بَينَ الطّريقةِ التِي تَكونُ بِهَا الأشْياءُ وَالطّريقةِ التي بِهَا يَنبغِي أنْ تَكونَ؛ بَيْدَ أنَّ مورغانتو حِينَمَا اسْتلْهمَ من نيتشه لَم يَفعلْ ذلكَ تَقليداً، بَلْ قَطعَ أنْفاسَ نُصُوصِ نيتشه المركبّةِ، وَغَيَّرَ مَجرى حَراكِهَا المعقّدِ كَيْ يُعطِي لهَا نفَساً آخَرَ وَتَوَجُّهاً مُغايِراً يَليقُ بِالمرامي النَّظريةِ التي صَاغَهَا في العلاقاتِ بين الدُّولِ؛ ذلكَ أنَ نَظْرةَ نيتشه، عَلَى عَكْسِ مُورغانتُو الذِي بَقِيَ مُتَمَركزًا حَولَ السِّياسةِ الدَّوليّةِ، لا تَكتفِي بِالتّشخيصِ الواقعيّ للثّقافةِ والمجتمعِ، لِلإنسانِ وَالأديانِ، بل تَذهبُ فيما وراء ذلك إلى اقتراحِ نَظْرةٍ علاجيّةٍ حَضَاريّةٍ تُبشّرُ بِمُستقبلٍ قَوَويّ تُعَايَرُ بِهَا الأشْياءُ بِعيارِ القُوةِ، حَيثُ القُوةُ لا شَريكَ لهَا هِيَ الحَكمُ وَالمبدأُ الذِي إليهِ مَرْجِعُ الأمُورِ جَمِيعاً.

2.2 القُوةُ بينَ الكينونةِ السّياسيّةِ (مورغانتو) وَالصَّيْرُورةِ الأونطولوجيّةِ (نيتشه)

وَقَبلَ أنْ نُبَيّنَ مواضِعَ الاتّفاقِ بينَ الفيلسوفِ نيتشه وَالمنظّرِ الواقعيّ مورغينتاو فِي العلاقاتِ الدَّوليّةِ، يَجدرُ بِنَا للأمانةِ العِلميّةِ، أنْ نُظْهِرَ بادئ الأمرِ الفُروقَ الرَّهيفةَ التِي بينهُمَا. وَمِنَ الخَليقِ بِالذِّكرِ، أنَّ مُورغانتو يتَجَاهَلُ الطرائقَ التي تَعمل بِهَا أونطولوجيا القُوَة لدَى نيتشه، وَالتي بِموجِبهَا يَتَحَرَّكُ الفَاعِلُون عَلَى نَحْوٍ يَضْطلعُ فِيهِ اللاوَعْيُ بِدَوْرًا كبيرًا، مُرَكِّزاً أكثر علَى مِيتافيزيقَا الكِياناتِ

الصِّراعيةِ القائمةِ مُسَبَقاً في الإجراءاتِ وَالتَّدابيرِ التَّكوينيّةِ لِلْقُوةِ. لِذَلكَ، لَا نُؤيّدُ ألريش إنمارك بيترسون Ulrik Enemark Peterson الذِي يَضعُ نيتشه ومورغانتو ضِمنَ تَصَوُّرٍ واحدٍ لِلقوةِ بِلا فُروقٍ، جَاعِلاً مَفهُومَ مورغانتو لِلسُلطةِ وَالقُوةِ هُو نَفْسُهُ مَفْهُوم نيتشه عَنْهُمَا. (Peterson, 1999, p 100)

إنَّ مورغانتو على شاكلةِ نيتشه يَهْتمُ بالمنوالِ الذِي تسبقُ بهِ القُوةُ الكِياناتِ وَتُوجِّهُهَا، بِما فِي ذلكَ المنظماتُ الصُغرى وَالكُبرَى مِثلَ الدَّولةِ، مِثلمَا هُو حالُ المفكرين النُّقاد المعاصرين أمثال ويليام كونولي (William Connolly,1999, p 111) إلا أنّهُ مِن الخليقِ بِالذكرِ أنَّ تَصَوُّرَ نيتشه لِلْكِياناتِ السَاعيةِ للقوةِ لا يَسْتنِدُ إلى مَفْهُومِ الكينونةِ بما هِيَ ثباتٌ، بل إلى مَفهومِ الصَّيرورةِ الدائمةِ، حيثُ تَتَشَكَّلُ وَتَتعدَّلُ أيْضاً تَبَعاً لِلْقِوىَ التي تَصْنعُهَا دَاخِليّاً، مِثلمَا هِيَ الدُّوَلُ أيْضاً التِي لا تَظلُ كمَا هِيَ، بَلْ هيَ فِي صيَرورةٍ مُسْتَمِرةٍ وَمحكومةٌ أيضاً بِالصِّراع داخليًّا وخارجيّاً، لِذلكَ فَالكياناتُ نَتائجُ وَحَوصَلاتٌ لِعلائقِ القُوةِ لاَ أقلَ وَلاَ أكثرَ. وَفَضْلاً عَنْ ذَلكَ لَيْسَتِ القُوةُ بِالمعنَى الذِي قَصَدَهُ نيتشه إنسانيّةً فَحَسْبُ أو سِياسيةً فَقطْ، إذ لاَ يَنبغي أنْ نَفهَمَا وَفقَ المركزّيةِ الإنسانيّةِ، وَإنّما هيَ، فَوقَ ذلكَ وَقبلَ كلِ شَيءٍ، قُوةٌ محايثةٌ للحياةِ نَفسِهَا تَدفعُهَا بِاستمرارٍ للتَّجاوزِ وَالصِّراعِ وَالاستزادةِ وَتَوْسِيعِ كَيْنُونَتِنَا وَمُمتلكاتِنَا علَى السَّواءِ. وَمورغانتو لاَ يَبتعِدُ كَثيراً عَنْ هَذا التَّصَوُّرِ، حِينمَا جَعَلَ الذّواتِ وَالدُّولَ شَغوفةً بِالقُوةِ بِلاَ حُدُودٍ تَنتهي إليهَا. (Morgenthau, 1993, pp 4-16) وَأيْضاً نَلْفِيهِ لاَ يَنأَى كثيراً عَنْ واقعيّةِ نيتشه حِينمَا ذَهَبَ إلى أنَّ الحَياةَ مُحدّدةٌ مُسَبَقاً بِالصَّيرورةِ مِن جِهةٍ، وَبِالصِّراعِ وَالكِفاحِ بِوصْفِهِمَا عُنْصُرِيْنِ تَكوِينيَيْنِ لِلْفَضاءِ السِّياسيّ struggle and conflict as constitutive of the political sphere وَفِي هَذا تَكْمُنُ الرُّؤيةُ التراجيديّةُ للحياةِ التِي يَتفِقُ نيتشه وَمورغانتو عليهَا. إضَافةً إلى ذلكَ، نَجدهُمَا يَدعُوان مَعاً

إلى التَحلّي بِالشَجاعة لِلإقرارِ وَمُجابهةِ حَقائقِ الواقعِ وَالطّبيعةِ التي لا مَفرَ مِنْهَا وَالحُضُورِ الكُليّ لِلْقوةِ وَالسُلطةِ.

زيادةً علَى مَا أوردناهُ مِنْ قَريبٍ، فَالفَوْضَى لدَى الواقعيّةِ السّياسيّةِ- بِمَا هِيَ واقعٌ مِن جِهةٍ وَمَقولةٌ تَفسيريّةٌ مِنْ جِهةٍ أخرَى، مَشْحُونةٌ بِنَظرةٍ تراجيديّةٍ إلى الإنسانِ وَالوَسطِ الدَّوليّ بِداعِي السَعي الحثيثِ لِلدُّولِ وَالأمَمِ إلى الظَفرِ بِالقُوةِ وَتَكديسِهَا واسْتعمالِهَا وَفقَ الظُّروفِ وَالسّياقاتِ-هِيَ التِي تُفْرِزُ لنَا ضُروبَ الانْسِجامِ وَالتَّوازن الظَّرْفِيَين، وَلَيسَا بِموجِبِ ذلكَ البتّةَ سَبَباً أو وُجُوداً مُسَّبَقاً، بَلْ هُمَا نَتيجةٌ لِتَدافُع وَتَفاعُلِ القِوى لا غيرُ. وَلَيْسَ في وُسْعِ فَضَاءٍ دُوليّ مِنْ هذَا النَّوعِ، بِموجِبِ هَذا النُّزوعِ الأنانيّ إلى القُوةِ وَبمقتضَى إراداتِ القُوةِ المحرّكةِ لِلدُّولِ، إلاَ أنْ يَكونَ مَسْكُوناً بِالفَوضَى وَجَانِبُهُ يَبقَى أبَداً غَيرَ مَأمُونٍ، حَيثُ شَمائلُ الأخلاقِ لا تُقدِّمُ إلا النَّزرَ القليلَ مِنَ الإسْعافِ وَالتَّهذيبِ. وَالخِطابُ الواقعيُّ يُشَيِّدُ هذا المعنَى الصِّراعيَّ للسِّياسيّةِ العالميّةِ؛ وَذلكَ بِالاسْتنادِ إلى مَرجعياتِ أساطينِ الفلسفةِ الكلاسيكيّةِ والحديثةِ.

لَكنْ نيتشه، كمَا ألمعنا إليهِ آنِفًا، يُصِرُّ علَى عَدِّ الكياناتِ نَفسِهَا التِي تَسعَى إلى المنافَسةِ في سَبيلِ الاسْتوساعِ الحَيويّ عُرْضةً للصَّيرورةِ الباطنيّةِ وَالتَحَوُّلِ المفَاجِئِ وَالتَشَكُّلِ المُسْتمِرِ. وَلهذَا لاَ يُوجدُ فَردٌ قارٌّ أو دَولةٌ ذاتُ اسْتِقرارٍ تَامّ وَنِهائيّ بِالمعنى المثاليّ؛ وَذلكَ لِكونِ الهُويّاتِ مَفْهُومًا مَنْطقيًّا لا يُعبّرُ عنِ الوقائعِ وَسيروراتِهَا الدائمةِ، ذلكَ المفْهُومُ الذِي لَطالمَا كانَ نيتشه أكثرَ الفلاسفةِ انْتِقاداً لهُ. (Deleuze, 2006, x)

في الوَقْتِ الذِي يُقدِّمُ لنَا نيتشه الإنْسانَ الأعْلَى Übermensch علَى أنَّهُ الإنْسانُ الذِي لا يَنفَكُ عنِ التَّجدّدِ وَالتَّجاوُزِ سَاعياً إلى المزيدِ مِنَ الكَوْنِ وَالمِلْكِ، تحرّكِهُ في ذلكَ إرادةُ قُوةٍ لاَ يَشْبَعُ لهَا مَعينٌ وَلا تَفئُ إلى قَرارٍ مَكينٍ، نَلفِي مُورغانتو يُركّزُ أكثر علَى "رَجُلِ الدَّولةِ"مِنْ جانبٍ وَالدَّولةِ مِنْ جانبٍ آخرَ وَالتي هِيَ صَنيعُ

رِجالِهَا. لَكنَّنَا لاَ نُوافقُ بتاتًا ميشال لورانس (Laurence, 2015.p 2) حِينمَا حَسِبَ مَركزّيةَ رُجلِ الدَّولةِ لدى مورغانتو مُعَبّرةً عَنْ عُبوديةٍ ارْتكاسيّةٍ reactive servitude إزاءَ الدَّولةِ تجعلُ مِنْ سِياساتِهِ سِياسةً اضْطِغانيّةً a politics of ressentiment، بَينمَا نيتشه، حَسَبَ رأيِهِ، يَتبَنَّى سِياسةً حَيَويّةً وَمُثبِتةً لِلْحياةِ بِعامَّةٍ، ذلكَ أنَّنَا نَرى أنَ مورغانتو في كتابِهِ "السِّياسة بين الأمم" قَدْ جَعلَ لِلسَعيِ إلى القُوةِ مَسْعًى إيجابيّاً وَطبيعيًّا وَمُبادرةً تَنبُعُ مِن قَلْبِ الإنْسانِ وَالدُّولِ، وَلمْ يحْسَبْ ذلكَ أبدًا مُجرّدَ ردِّ فِعلٍune simple réaction مَا كانَ لَهُ أنْ يُوجَدَ إلا بِسببِ التَّهديداتِ المتأتّيةِ مِنْ خَارجٍ مَا مِنْ حيثُ هِيَ الدُّوَلُ الأخْرَى.

وَمَا يَدعُونَا إلى هَذَا الرأيِ هُو أنَّ النَّظرةَ المتفحِصةَ لِلْكتابِ تَجعلُنَا نَذْهَبُ إلى الإقرارِ بِأنَّ الطَّابَعَ الأونطولوجيَّ للإنسانِ وَالدُّولِ فِي الانْهمامِ بِالقُوةِ وَالانْدفاعِ إليهَا، بما هُوَ طابَعٌ بَاطنيٌّ مُتجذِّرٌ في الوُجودِ المجتمعيِّ نَفْسِهِ، هُو العِلّةُ الكافيةُ وراءَ أفاعيلِ الإنسانِ وَالدُّولِ وَمَا ردُّ الفعلِ إلا وَجْهاً ثانويّاً لهَا وَعلَى أساسِ ذلكَ يَنبغِي أنْ نُفرِّقَ بينَ دُولٍ كُبرَى فَاعلةً إثباتيّةً تُعيدُ بِاسْتِمرارٍ خَلْقَ النَّسَقِ الدَّوليِّ علَى صُورتِهَا وَدُولٍ صُغْرَى ارْتكاسِيّةٍ états réactionnaires تَكتفِي فَقطْ بِالتكيُّفِ وَردِّ الفِعلِ السِّلبيِّ، وَغالباً مَا تَكونُ عُرْضةً لِلتّهديدِ أكثرَ مِن غَيرِهَا وَيُعادُ تَشْكيلُهَا لِتَتنَاسَبَ وَمَا تُفْرزُهُ مَوازينُ القِوَى الفاعلةِ.

3.2 القُوةُ: مِنَ المَعنَى التَّكوينيِّ (مورغانتو) إلى المعنَى التَّوليديِّ (نيتشه)

دَعْنَا نَعرضُ بَعْضَ النُّصوصِ لدَى نيتشه وَمورغانتو، كيْ يَتّضحَ لدينَا مَفْهُومُ القوةِ لَديهِمَا. بِالنسبة إلى مورغانتو، فَالقُوةُ هيَ كُلُ مَا يُقيمُ سَيْطرةَ الإنْسانِ علَى الإنْسانِ وَالمحافظةُ عليهَا، (Morgenthau1993, p 11) وَعليهِ، يَتعلَّقُ الأمرُ لديهِ بِسَيطرةِ الإنسانِ بِعُقولِ البَشرِ الآخرينَ وَالتّأثير فِيهَا (Morgenthau 1993, 30) وَمُذْ ذَاكَ تُصْبِحُ القُوةُ مُنتَشِرةً أو مُتفشيةً في الميدانِ الاجْتماعِيّ، سَواءً أتعلّق الأمرُ بِالعُنفِ الجَسديّ أمْ بِالعلاقاتِ النّفسيّةِ الخفيّةِ. إنَّ

الصِّراعَ مِن أجْلِ القُوةِ هُو، يَكْتُبُ مُورغانتو، بِالنّتيجةِ، صِراعٌ كَونيٌّ في الزَّمَانِ وَالمكانِ وَيُؤلّفُ وَاقعةً في الوُجُودِ غير قابلةٍ للردّ (Morgenthau 1993, 36) وَهَذا الصِّراعٌ يَجدُ أرومتَهُ في الطَّبيعةِ البشريّةِ بِالنسبةِ إلى مورغانتو وَفيماَ هُو أبْعَدُ مِنْ ذلكَ، فِي الحياةِ نَفسِهَا، بِالنّسبةِ إلى نيتشه.

وَإذا أردنَا الدّقةَ قُلنا إنَّ الفضاءَ السِياسيَّ يَصْدُرُ بِالتّحديدِ عمَّا يُسمّيهِ مورغانتو بِالنَّفسِ الساعيةِ إلى السَّيطرةِ the animus dominandi، بِوصفِهَا نَفْسًا ظَمْآنةً بِلا شَبعٍ إلى السُلطةِ، وَهِيَ مُتواجِدةٌ كَقُوةٍ بَاطنيّةٍ وَعُنْصرٍ ثَاوٍ فِي النَّفسِ البشريّةِ. (Morgenthau, 1947, p 158) وَلمزيدٍ منَ الإيْضاحِ، نَقُولُ إنَّ مورغانتو اسْتَخدمَ المصطلحَ النيتشويَّ "إرادة القوة" **will to power**، بَينَمَا كانَ يَتحدَّثُ عَنْ شَهوةٍ بِلا تُخومٍ (Morgenthau, 1947, pp 158-159)، وَيُؤكِدُ بِأنَّ هذهِ الشَّهوةَ مُلازمةٌ لِلطّبيعةِ البشريّةِ وَلا يُمكنُ لهذهِ الغَريزةِ أنْ تَكونَ مُنفصِلةً عَنِ الحياةِ الاجتماعيّةِ. إنَّهَا لَقُوةٌ مُوَجَّهَةٌ نَحوَ الأخرينَ ساعيةً إلى الحفاظِ علَى أهمّيّةِ ذاتِهَا وَإنمائِهَا وَإثْباتِهَا مُقارنةً بِالآخرينَ. (Morgenthau, 1947, pp 158)كَذلكَ لا يَتعلَّقُ التَّعَطُشُ إلى القُوةِ بِالحفاظِ علَى البقاءِ فَقطْ، بل بِاستظهارِهَا داخلَ الفَضَاءِ الحَيويّ.

وَأبْعَدَ مِنْ هذَا المنظورِ، يَنْظُرُ نيتشه إلى القُوةِ أعْمَقَ مِنْ هَذا بِكثيرٍ؛ فَهُوَ يَضعُ في القُوةَ قُدرةً علَى الإنتاجِ وَالتّوليدِ لِلأشكالِ وَالهُوّياتِ وَالمعَانِي التِي مِنْهَا تَتَكَوَّنُ الوَقائعُ، وَعلَى هَذَا الأسَاسِ، فَالقُوةُ لهَا العَدِيدُ مِنَ الوظائفِ التَّكوينيّةِ وَالتّوليديّةِ مِنْ بينِهَا خَلْقُ الكِياناتِ وَبَعدئذٍ تَحريكُهَا وَتَوْجِيهُهَا، بَلْ فِي مَطاوي الحركةِ يَأخُذُ هَذا الفَردُ أو تِلكَ الدَّولةُ هَذَا الشَّكْلَ وَذاكَ المضْمُونَ وَعلَى قَدْرِ القُوةِ التِي يَتَألّفانِ مِنهَا أيْضاً يَتَصرَّفانِ علَى هذا النَّحوِ أو ذاكَ. هَذهِ القُوةُ التِي هِيَ عِلّةُ نُشوءِ الكِيانِ الشَّخصيّ أو المعنويّ وَتَطوُّرِهِ، مَسالِكِهِ ومَساراتِهِ، هِيَ مَا يُسمّيهِ نيتشه بِ: إرادة القوة **will to power**. وَمَا أطروحةُ ميشال فوكو عَنِ السُّلطةِ

بمَا هِيَ محايِثَةٌ لِكلِ العلاقاتِ الاجْتماعيّةِ وَبِمَا هيَ مَا بهِ تَتَمفْصَلُ المعارفُ وَالمعانِي إلا تَطويرٌ لأطروحةِ نيتشه وَدَفْعاً لِلْجانِبِ التَّوليديّ مِنَ القُوةِ إلى مَداهَا الأقْصَى.

لمزيدٍ من الإيضاحِ نَقُولُ إنَّ إرادةَ القُوةِ لدى نيتشه تُقَالُ بِصِيغةِ المفردِ على مَبْدأٍ عَامٍ لِلظّاهراتِ البَشريّةِ وَغَيرِ البَشريّةِ، وَتُقَالُ أيضاً بِصيغةِ الجمعِ، وَفقَ ما تدلُ عليه الكثيرُ مِن نُصوصِهِ، علَى تَفرُّعاتِ وَتجلّياتِ المبدأِ في جُموعِ الكِياناتِ؛ وَهذا الصِّنفُ مِنَ الإرادةِ حَدَثٌ وَسَيرْورةٌ وَلَيْسَ مَبْدأً مُجرَّداً مُتعالِيّاً علَى غرارِ مَبادئِ الفلسفةِ المثالّيةِ، وَهذَا مَا يَجعلُهُ مبدأً حَيويًّا يتجلّى في الكائناتِ وَفْقَ صُورٍ تَفاضليّةٍ.

هَذَا جَميعُهُ يُؤكدُ لنَا، أنَّ مَا جَعلَ مورغانتو يَتغَاضَى عَنْ فِقهِ الجانبِ الخلاقِ لِلْقُوةِ هُو فَهمُهُ لِلْقُوةِ في سِياقٍ أنثروبولوجيّ مَحْضٍ وَحَصْرِهِ لِلْقُوةِ في الطَّبيعةِ البَشريَّةِ وَفَهْمِهِ لِلْإنسانِ علَى أنَّهُ حَيَوَانٌ سِياسيٌّ بِالفِطرةِ ، مِمَّا أفْضَى بِهِ إلى القَولِ بِأنَّ الإنسانَ وُلدَ كَيْ يَسْعَى إلى القُوةِ وَيَشْتَهِيَهَا بِالمعنَى الحرفيّ لِلكلمةِ (Morgenthau, 1947, p 138) جَاعِلاً الطَّبيعةَ البَشريَّةَ ذات رُسُوخٍ، مُعَبّراً عَنْ ذلكَ بِأنَّ الطَّبيعةَ البشريّةَ لم تَتَغيَّرْ مُنذ العُصورِ الكلاسيكيّةِ. (Morgenthau, 1993, p 4) وَهذهِ الشَّهوةُ أو الغَريزةُ الانْدفاعيّةُ يُقدِّمُهَا مورغانتو علَى أنَّها العِلّةُ الحقيقيّةُ وراءَ فَسادِ نَفْسِ الإنسانِ. (Morgenthau, 1947, p 182) معَ ذلكَ، لمْ تَفْعَلْ نَظريّتُهُ إلا مُعارضةَ الافتْراضِ الليبراليّ لِلطّبيعةِ البشريّةِ بِمَا هيَ طَبيعةٌ عَقلانيّةٌ وَطَيّبةٌ بِافتراضٍ آخرَ غير قابلٍ لِلتَّصديقِ وَإشكاليٍّ عنِ الطَّبيعةِ البشريّةِ بِمَا هيَ طَبيعةٌ شهوانيّةٌ وَأنانيّةٌ وَخَطّاءةٌ، وَهُمَا في الحقيقةِ تَصورانِ يَظهرانِ علَى أنَّهما مُختلفانِ، بَيْدَ أنّهُما فِي عَينِ الحقيقةِ وَجْهَانِ لِلْوهمِ نَفسِهِ.

حُجتُنَا في ذلكَ، أنَّ كِليهما يَنظرانِ إلى الإنْسانِ علَى أنَّهُ مُعْطَى قارٌّ وَمُشكَّلٌ علَى نَحوٍ مُسَبَّقٌ فِيمَا وراءِ الصَّيرورةِ الوُجوديّةِ وَالتّعَدُديّةِ السَيّالةِ فِي صُلبِ الإنْسانِ الذِي نَلفي فِيهِ نُزوعاً إلَى الخَيْرِ، مِثلمَا نجدُ لديهِ جُنُوحاً إلى الشّرِ، دُونمَا

أنْ نَنْسىَ مَا للظُّروفِ وَالسِّياقاتِ وَالبُنَى الثَّقافيّةِ مِنْ دورٍ في تَرجيحِ هذه الطَّبيعةِ أو تلكَ. وَهَذَا مَا جَعلَ نَظريّةَ مورغانتو غَير قابلةٍ للتّطبيقِ، وَلاَ للتَّعميمِ وَمُتغافلةً عن ِالدَّقائقِ الرهيفةِ المتعلّقةِ بِالسّياقاتِ التّاريخيّةِ التِي يَزعُمُ الاتّكاءَ عليهَا.

لا مُشاحةَ فِي أنَّ غِيابَ فِقْهٍ لِلْقُوةِ، لدَى مورغانتو، بِمَا هِيَ قُدرةٌ تَوليديّةٌ، حَالَ دُونَ فَهمِ الطَّابَعِ المتَغيّرِ لِلْطَّبيعةِ البشريّةِ نَفْسِهَا، وَلَوْ فَعَلَ لَأَدركَ أنَّ الطبيعةَ البشريةَ تَتَشكَّلُ وَلاَ تَنْفَكُ عَنِ التَّشَكّلِ؛ لاَ تبْرَحُ البِناءَ وَالتَعديلَ، الهدمَ وَالإضافةَ، وَمِنْ ثمَّ فَهيَ لَيستْ كِياناً ثَابتاً وَلا طَبيعَتَهَا الشّريرةَ بِثَابتةٍ، وَعلَى ضوءِ مَنْظورنَا هَذا، يُخطئُ مورغانتو حِينمَا حَشَرَ الإنسانَ في نمطٍ قارٍّ لاَ يَتغيَّرُ بِالتَّربيّةِ وَلاَ بِالوَعْيِ الأخلاقيّ، جَاعِلاً مِنهُ كائناً لا يَعْرفُ إلا الخطيئةَ وَالتَّعَطشَ إلى القوةِ وَمُسْقِطاً أونطولوجيَا الطَّبيعةِ الخطّاءةِ هذه على صَعيدٍ أعْلى بِمَا هُوَ الصَّعيدِ الدَّوليّ. (Morgenthau, 1947, p 154)

3. النَّسَقُ الدَّوليُّ بينَ الفَوضَى وَالتَوازُنِ علَى ضَوءِ مَفهُومِ القُوة لدى أعلام الواقعيّةِ السّياسيّةِ

1.3 الرّكائزُ العَامَّةُ للواقعيّةِ السياسيّةِ في العلاقاتِ الدَّوليّةِ

لا يَسَعُنَا هَهُنَا، ابْتِغَاءَ الوُقُوفِ علَى أوْجُهِ التَّقارُبِ بَينَ القُوةِ بِوَصفِهَا الأساسَ الأونْطُولُوجيَّ لِلْكِياناتِ الماديّةِ وَالمعنويّةِ لدَى نيتشه وَالقُوةِ بِوَصفِهَا الأسَاسَ السِّياسيَّ لِلْعَلاقاتِ بَينَ الدُّولِ لَدَى مُنظِّرِي الواقعيَّةِ السياسةِ، إلاَ أنْ نُلْقِيَ نَظرةً عامَّةً علَى مَا تَتَميّزُ بِهِ المدرسةُ الواقعيّةُ فِي العَلاقاتِ الدَّوليّةِ عَنْ سَائرِ المدارسِ الأخْرَى وَبِالتَّحديدِ المدرسةِ المثاليّةِ، وَلَنْ يَقعَ ذلكَ فِي تَقديرِنَا إلا إذَا عَرَضْنَا بَعضَ أركانِهَا النَّظريّةِ. وَفِي هَذَا السِّياقِ سَنَذكرُ مَا ذَهَبَ إلَيهِ ويليام وولفورث William C.Wohlforth فِي كَونِ الوَاقعيّةِ تَقُومُ علَى ثَلاثةِ أركانٍ: يَتمثَّلُ الرُّكْنُ الأولُ فِي حِسْبانِ الدَّولةِ- الأُمَّةِ الجَماعةَ الأكثرَ أهمّيّةً لِدراسةِ

العلاقاتِ الدَّوليّةِ، وَالرُّكْنُ الثّانِي يتَمثَّلُ فِي أنانيّةِ الإنْسانِ التِي تَدفَعُ الفَرْدَ إلى الجُنُوحِ غَالِباً إلى تَفْضِيلِ مَصْلَحتِهِ الذّاتيّةِ علَى النَّزعةِ الغَيريّةِ إذَا مَا كانَ مُجبَراً أنْ يخْتَارَ بَينَ المصْلحةِ الجَماعيّةِ وَالمصلحةِ الخَاصّةِ وَالرُّكْنُ الثَالِثُ يَتمثَّلُ في مَركزيّةِ السُّلطةِ وَالقُوةِ في دِراسةِ العلاقاتِ الدَّوليةِ، إذْ تُظهِرُ السِّياسةُ وُجودَ فوارقَ وَتَفاوتٍ فِي القُوةِ، سَواءً كانتْ هذهِ الآخيرةِ بِمعنَى الضَّبطِ وَالتَّحَكُمِ أمْ بِمعنَى الموارِدِ. إنَّ هَذهِ الأرْكَانِ بِمَا هِيَ التّجَمُعُ وَالأنانيّةُ وَالسُّلطةُ (regroupement, égoïsme et pouvoir)قائمةٌ علَى مَفهُومِ الصِّراعِ، ذلكَ أنَّ الدُّولَ تَتَصارعُ أثْناءَ نُزوعِهَا إلى القُوةِ كَيْ تَظفر بِمَا بِهِ تَرغبُ (Wohlforth, William, 2008 pp 32 -33) .

2.3 القُوةُ بِوَصْفِهَا مَقُولةً تَفسيريّةً لِلواقعيّةِ السِّياسيّةِ

=مِنَ المفيدِ أنْ نُفَصِّلَ مَفهُومَ القُوةِ لدى أكثرِ الواقعيينَ حُضُوراً فِي المدونةِ الواقعيّةِ وَليس هذا إلا هانز مورغانتو، ثُمَّ نَعرِضُ أراءَ غيرِهِ مِنَ الواقعيينَ فِي القُوةِ، وَبناءً علَى ذلكَ نَقُولُ إنَّ موغانتو يُقَدِّمُ لنَا ثلاثَ سِياساتٍ تَتَبناهَا الدُّولُ فِي عَلاقتِهَا بِالقوةِ التِي تَسعَى الدُّولُ دائماً إلى جَعلِهَا غايتَهَا القُصوى وَالمبَاشِرةَ. الشَكلُ الأولُ مِن هاتِهِ السِّياساتِ هُو السِّياسةُ فِي حالتِهَا القَائِمةِ الراهنةِ " politique du statu quo حَيثُ الدَّولةَ لا تَسعَى إلا إلى الحِفاظِ علَى قُوتِهَا بِمَا هِيَ غريزةُ الحفاظِ علَى البقاءِ لا أكثر. الشَكلُ الثّاني مِنْ سِياساتِ الدُّولِ هُو السِّياسةُ الامبرياليّةُ "politique impérialiste" حَيثُ الدَّولةُ تُريدُ بِوضُوحٍ أنْ تَزيدَ مِنْ قُوَتِهَا وَتُوسِّعَ سُلطتَهَا. الشَكلُ الثالثُ يتَمثَّلُ فِي سياسةِ النُّفوذِ وَالهيبةِ politique de prestige حَيثُ الدَّولةُ تَمِضي إلى إثباتِ قُوتِهَا واسْتِعراضِهَا (Morgenthau, 2006, pp 50-96). وَمِن ثمَّ تَغدُو القُوةُ بمثابةِ الخطيئةِ الأصليّةِ المثيرةِ للرِّثاءِ وَالأسَفِ، لَكنْ مَعَ ذلكَ لاَ نَملكُ عَنْهَا بُدٌ. إنَّ كلَ مَا يَفعلُهُ الإنْسَانُ أو يَشرعُ فِي فِعلِهِ مِنْ نُزوعِهِ الأنانيّ يَفِيضُ وَإليهِ يَرجِعُ وَلاَ يُمكنُ لَهُ بَتاتًا أنْ يَتعَالَى عَليهِ (Morgenthau,

1946, p 188). وَيُضِيفُ إلى أنَّ الأونطولوجيا الإنسانيّةَ تَقترِنُ إذن مِنْ جهةٍ أخْرَى بِإرادةِ السَّيطرةِ التِي تُشيرُ إلى رغبةٍ باطنيّةٍ فِي الإنسانِ لِلْحفاظِ علَى مرَكزِهِ مُقارنةً بِالآخرينَ، وَتَعْزيزِهِ أوِ اسْتِظهارِهِ (Morgenthau, 1946, p 8). إنَّهَا أونطولوجيا قَائمةٌ علَى تَعْميمِ إرادةِ القُوةِ بما هي سَيطرةٌ، وَلهذَا يقولُ: " بَيْنَمَا الحَاجاتُ الأسَاسيّةُ لِكلٍ مِنَّا يُمكِنُ إرْضَاؤُهَا، فَإنَّ رَغْبَةَ الإنْسانِ فِي السُّلطةِ لاَ يُمكِنُ إشْباعُهَا إلا حِينَمَا يَخضعُ لَهُ آخِرُ إنْسَانٍ علَى وَجْهِ البَسيطةِ". (Morgenthau, 1946, p 193)

لاَ يَعزُبُ عنَّا أنَّ ذلكَ لاَ يَعْنِي بِالنّسبةِ إلى مورغانتو الخلْطَ بين أنماطِ الصِّراعِ وَالسَعيِ نَحْوَ القُوةِ وَمِنْ ثمَّ عَدمُ التَّمييزِ بينَ السِّياسةِ الدّاخليّةِ وَالسِّياسةِ الخارجيّةِ، وَإنَّمَا كلامُ مورغانتو لاَ يُفيدُ إلاَ أنَّ التّمَاثُلاتِ بينَ السِّياسَتَينِ تَكونُ بِوسَاطةِ تَشَابُهاتٍ اسْتِقرائيّةٍ وَليسَ بِوَسَاطةِ اسْتِدلالٍ مَنْطقيٍ. (Tellis ,2005, p 610) وَدَليلُنَا فِي ذلكَ تَأييدُهُ لِكَونِ مَاهيّةِ السِّياستين تَظلُ وَاحدةً مِنْ حيثُ هِيَ الكِفاحُ مِنْ أجلِ القُوةِ وَبِموجِبِ ذلكَ فَالفَرقُ بَينهُمَا يَكْمُنُ فَقطْ فِي شُروطِ ذلكَ الكِفاحِ. (Morgenthau,1948, p 331) تَفصيلاً لِمفْهُومِ القُوةِ في الأنموذجِ الواقعيّ، يَعُدُّ كينيث ويلتز القُوةَ فِكرةً قَديمةً وَبَسيطةً مَضْمُونُهَا يَكْمنُ فِي كَونِ فَاعلٍ مَا يُمارسُ بِفَضلِ قُوتِهِ الإضافيّةِ تَأثيراً فِي غَيرِهِ أكثرَ مِمَّا هُمُ يُؤثِرونَ فيهِ.

(Riker 1964, pp 341-349) (Waltz, 1959, p 192) غَيرَ أنَّ القُوةَ فِي سِياقِ العَلاقاتِ الدَّوليّةِ تُشيرُ بِالضَّرورةِ إلى مَعنًى عَسْكريٍ جَليٍ، كمَا يُشيرُ إلى ذلكَ صامويل هنتنغتون Samuel Huntington حِينمَا ذَهبَ إلى القَولِ:"إنَّ القُوةَ العَسكريّةَ هِيَ فِي قَلبِ الاهْتِماماتِ النَّظريةِ لِلْواقعِيينَ (Huntington, 1993,n° 4, pp 68-83) وَيُوافِقُهُ فِي ذلكَ مورغانتو إذْ صَرَحَ فِي مَوضِعٍ مِنْ كتابِهِ "السِّياسة بينَ الأمم": "إنَّ تَبَعيّةَ القُوةِ الوَطنيّةِ لِلقُوةِ العَسكريّةِ لَهُوَ مِنَ الوُضُوحِ لِدَرجةِ أنَّهُ فِي غِنًى عَنِ الإثباتِ". (Mueller, 1995, p 712) فَضْلاً علَى ذلكَ تَتَعلَّقُ القُوةُ فِي

كِتاباتِ كينيث ويلتز وجون ميرشايمر بِالقُدرةِ الملمُوسةِ وَليسَ بِمجرّدِ القُدرةِ علَى التَّأثيرِ. (Waltz, 1979, pp 191-192-193) وَلِهذَا فَالقُوةُ العسكريَّةُ علَى هَذا الضَربِ مِنْ المعنَى هِيَ التَّحديدُ الأوليُّ لِلْقُوةِ وَتَغدُو القُوةُ العظيمةُ أثرَ ذَلكَ الوَحْدةَ التِي تَملكُ مَا يَكفِي مِنْ المعِداتِ العَسكريّةِ التِي تَحْظَى بِمصداقيّةٍ فِي أيّ حَرْبٍ تَعاقديّةٍ ضِدَ القِوَى الكُبرَى دَاخِلَ النَّسقِ. (Mearsheimer, 2001, p. 5) وَبِمُوجِبِ ذَلكَ فَالقُوةُ هِيَ المعْيَارُ الفَيْصَلُ وَالمفْهُومُ المركزيُّ دَاخِلَ تَخصُّصِ العَلَاقاتِ الدَّوليّةِ بِنَفْسِ المنزلةِ التِي يَكُونُ فِيهَا المالُ بِالنِّسبةِ إلى الاقْتِصادِ. (Mearsheimer, 2001, p 12) لاَ شَيْءَ، وَفْقَ ذلكَ، يُفسِّرُ الحُروبَ وَمَا تُفْضِي إلَيهِ أكثر مِنْ مَفْهُومِ القُوةِ. (Mearscheimer, vol 13, n 4 , pp 54-89)

=وَيُضيفُ ويلتز بِأنَّ التَّأثيرَ المعْتَبرَ لِلْأفعالِ الأمريكيّةِ علَى السّاحةِ الدَّوليّةِ يَعْكِسُ قَبْلَ كُلِ شَيءٍ الوَزْنَ الثَّقيلَ وَالمهِمَ لِلْقُدراتِ العَسكريّةِ للولاياتِ المتَحَدةِ. وَهَذَا يَجعلُ حِسْبانَ الدَّولةِ التي تَفْتقِرُ إلى القُوةِ العَسكريّةِ المعْتَبرةِ دَولةً قَويّةً حِسْبانًا يَنْقُصُهُ الكَثيرُ مِنَ السَّدادِ وَفِي عِباراتِ روبرت أرت وويلتز:" إنَّ صَرامةَ النَّوايا الأسّاسيّةَ لِدَولةٍ مَا تُقاسُ بَادئ الأمرِ بِالنَّظرِ إلى قُوتِهَا العَسكريّةِ.فِي غِيابِ هذاَ النَّوعُ مِنَ القُوةِ تَفتقرُ دبلوماسيّةُ البُلدانِ بِصفة عامّةٍ إلى النَّجاعةِ". (Art and Wartz dir, 1983, p 7) إضَافةً إلى ذلكَ يَذْهَبُ جيمس مورو James Morrow إلى عَدِّ توزيعِ القُوةِ وَتَفرُّعِهَا بمثابةِ تجليّاً مَلمُوساً للبِنْيةِ. (Morrow, 1988, pp 75-97-82) وَلِهذَا السَّببِ نَلفِيهِ يَمَدحُ اسْتِعمالَ النَّماذجِ التِي تَأخذُ بِعَينِ الاعْتبارِ دَورَ البِنيةِ مِنْ جَانبٍ وَدورَ الفَاعلِ مِنْ جانبٍ آخرَ، مُقَدِّراً بِأنَّ الواقعَ نَفسَهُ يُؤلِّفُ تَبَعاً لإرادةِ الفاعلينَ. وَمِنْ ثَمَّ لاَ تُصبِحُ القُدُراتُ العَسكريّةُ لِدولةٍ مَا المتاحةُ أو المستعملةُ هِيَ المحِّدداتُ التِي تُقرِّرُ وَحْدَهَا مَصِيرَ حَربٍ مَا وَمُنْتَهَاهَا. (Morrow, 1985, vol 29, n 3 , pp 473-502)

وَفِي سِياقِ الحَديثِ عَنْ الفَاعلينَ فِي إطَارِ القُوةِ بمَا هيَ قُوةٌ عَسكريّةٌ، فَإنَّ جون ميرشايمر John Mearsheimer يُعطِي لِلْفاعلينَ نَوايَا أكثرَ عُدوانيّةً مِنْ تِلكَ التي تُمليهَا غَايةُ الاسْتمرارِ فِي البَقاءِ وَيَحْسَبُ مُنْذ ذاكَ الدُّولَ سَاعيةً إلى أقصَى قُوةٍ ممكنةٍ إلى الحدِّ الذِي تبَسِطُ ذُيولَ الهَيمنةِ علَى الجميعِ بِمَا هِيَ هَيْمنةٌ تَضْمَنُ اسْتمرارَهَا الجَسديَّ وَلَيسَ ثمةَ أيُّ مَكانٍ لِلْبَقاءِ فِي حالةِ رُكودٍ ثابتٍ وَالاكتفاءِ بِمَا هُوَ رَاهنٌ statu quo. (Mearsheimer, 2001, p 46)

لَكنْ لَيْسَتِ القُوةُ العَسكريّةُ وَحْدَهَا فِي كلِ الحالاتِ هِيَ المعْيَارُ الأوْحدُ لِلتَّدليلِ علَى قُوةِ بَلدٍ مَا؛ اليَابانُ مَثَلاً قُوتُهَا لاَ تَعُودُ إلى قُوتِهَا الدِّفاعيّةُ على الرُّغمِ مِنْ كونِهَا قُوةً لا يُستهانُ بِهَا بل منَ البَيِّنِ أنَّ مَقامَهَا وَمَنزلتَهَا القَويّةَ تَكشِفُهَا بِدرجةٍ أكبرَ دبلوماسِيَتَهَا النَّاجعة وَتأثيرهَا علَى المستوى الدَّوليّ، وَطِبقاً لِذلكَ، لاَ غضاضةَ لَو أعْرَبْنَا بِأنَّ القُوةَ العسكريَّةَ ليست هِيَ مَنْ جَعلتِ اليابان بِمثلِ ذلكَ التّأثيرِ. (Waltz, 1979, p 72) فَهُوَ بَلدُ علَى الرُّغمِ مِنْ إمْكاناتِهِ المحدودةِ عَسكريّاً إلاَ أنَّهُ قَويٌ مِنْ حَيثُ التَّأثيرُ وَالسَّيطرةُ وَالمكانةُ الدَّوليّةُ وَالأهمّيّةُ الاقتصاديّةُ. مَعَ ذلكَ، فَاليَابانُ،حَسَبَ هنتغنتون، تَطْمَحُ إلى القُوةِ وَتَسْعَى إلى تَعْزِيزَهَا.

3.3 الدُّولُ بَينَ مَنْطقِ التَّوازنِ وَفوضَى البِنْيةِ

=تُعَدُّ مَقُولةُ "فَوضَى النَّسَقِ الدَّوليّ"" l'anarchie du système international" مِنْ أهَمّ المقولاتِ التَّفسيريّةِ التِي احْتلَتْ مَنزلةً فِي غايةِ الأهمّيّةِ لدَى الواقعيينَ بِمختِلفِ مَشاربِهم وَتوجهاتِهم، وَلاَ غَرْوَ مِنْ أنْ تَصدُرَ كلُ التّفريعاتِ التّفسيريّةِ لَديْهِم مِنْهَا وَهَذا لا يَعنِي أنَّهُم لاَ يَعْتنُونَ بِمَا يحدثُ مَحليّاً داخلَ الدُّولِ بل مِنْ جَادةِ الصَّوابِ أنْ نَقُولَ إنّهُم يجعلونَ لِلسّياسةِ الدَّوليّةِ اخْتِلافاً تَتَميَّزُ بِهِ عنِ السّياسةِ الداخليّةِ، وَليسَتْ هذهِ السِّمةُ المميّزةُ فِي تَقديرِهِم إلا مِيزةَ الفَوضَى. (Macleod et O'meara, 2007, p 42) وَتَبَعاً لِذلكَ، فَالدُّولُ نَفسُهَا مِنْ حَيثُ هِيَ ذاتُ سِيادةٍ نَتيجةٌ لِغيابِ أيّ سُلطةٍ عُليَا instance supérieure تَجرِي

بِمُقْتضاهَا، وَمِنْ ثمَّ فَهيَ بِمثابةِ وَحَدَاتٍ لِلنَّسقِ الدَّوليّ فَضْلاً علَى أنَّهَا تَفْتَقِرُ إلى أيّ تَوَازنٍ مُسْتَمرٍ فِي عَلائقِهَا وَكُلُ دولةٍ إثرَ ذلكَ تَغدُو المرجِعَ الأقْصَى لأمْنِهَا وَالسَّيِّدَ الأعْلَى علَى نَفسِهَا وَهِيَ مَنْ تُحافِظُ علَى واقعةِ احْتِكارِ اسْتِعمالِ القُوَة. (Charles-Philippe, 2006, p.72) إنَّ المكانةَ التِي يَحْتلُهَا مَفهُومُ النَّسَقُ لدَى الوَاقعيينَ حَدَاهُم عَلَى القَولِ بِأنَّ الدُّولَ فِي ظِلِ الصِّراعِ لاَ يُمكِنُ أنْ يَتأتَّى لهَا الحَلُّ مِنْ خَارِجِ النَّسَقِ وَإذَا جَرَى ذلكَ، فَإنَّ ذَلكَ يُفْضِي، لاَ مَحالةً، إلى خَطَرِ تَفَاقُمِ الأوْضاعِ وَخُروجِهَا عَنِ السَّيطرةِ فِي الحَربِ. (Lieber, 1993, pp 155-163) أضِفْ إلى هَذَا كُلِهِ، تَتَبنَى الدُّوَلُ غَالباً، فِي سِياقِ هذهِ الفَوضَى، سِياسَاتٍ ذَرائعيّةً وَعَقلانيّةً لِمُضاعفةِ قُوتِهَا وَاسْتِتبابِ أمْنِهَا. (Venesson, 1998, pp.176-194-186) وَفِي النَّسقِ الفَوضويّ كُلُ دَولةٍ لاَ يمكنُ لهَا أنْ تُضَحِي بِمصالحِهَا فِي سَبيلِ خِدمةِ جَماعةٍ كُبرَى؛ كَأنْ تَضَعَ أمْنَهَا فِي خَطرٍ أو تُلغِمَ اسْتِقرارَهَا وَتُغامِرَ بِمُسْتقبلِهَا.((Frankel, dir, 1996, p. xv

وَفِي سِياقِ هذهِ الفَوضَى كَذلكَ تَغيبُ الثِّقةُ بينَ الدُّولِ حتَى وَلَوْ ادَّعَى بَعضُهَا طُموحاتٍ مُتواضِعةً (Charillon, 2002, p 43) وَهَذَا مَا يَدْفَعُهَا إلى التَّسلّحِ لِضَمانِ الأمْنِ. وَمَا اسْتِعمالُ مُصْطَلَحِ الفَوْضَى «Anarchie» لِوَصْفِ الوَاقعِ الدَّوليّ إلا لاعْتِباراتٍ كثيرةٍ مِنْ بينِهَا كَونُ النَّسقِ الدَّوليّ مُفْتقِرًا إلى شُرطةٍ عالَميّةٍ، زِيادةً علَى افْتقارِهِ إلى سُلطةٍ دُوليّةٍ تُراقبُ السُّلوكَ الجَيّد لِلأمَمِ. وَعلَى هَدْيِ هَذهِ العِللِ الواردةِ مِنْ قَريبٍ يَذْهَبُ ويلتز إلى حتميّةِ لجوءِ الدُّولِ إلَى أسَاليبِهَا وَوسائلِهَا الخاصّةِ وَهَذا اللُجوءُ إلى الذَّاتِ هُوَ الذِي يَتَوَقفُ مَرْجِعُ الأمْرِ فِي العَلاقاتِ الدَّوليّةِ. وَلاَ يَغيبُ عَنْ مَدارِكِنَا كَونَ الدُّولِ فِي سِياقِ فَوضويّةِ النَّسَقِ الدَّوْليّ تَعِيشُ حَالةَ قَلقٍ حِيَالَ أمْنِهَا وَالتّغيُّراتُ المسْتَمرةُ لِلْقُوةِ المتعلّقةِ بِالنَّسقِ الدَّوليّ وَغِيابُ سُلطةٍ مَركزيّةٍ تَجعلُ الشُّعورَ بِالأمنِ أمْراً مُتعَذّراً، لَكنْ جَميعُ الدُّولِ مُتّفِقَةٌ علَى أنَّ الدَّولةَ التِي فِي حِيازتِهَا أكبر قَدرٍ مِنَ القوةِ هِيَ فِي مَأمَنٍ أكثرَ مِنَ الدُّولِ التِي لديهَا

قَدْراً أقَلَ مِنَهَا.(Frankel, 1996,vol 5,n3, p. xviii) وَالدُّوَلُ لاَ تَسعَى فَقطْ إلَى التَّموقعِ مُقارنةً بِالدُّولِ الجارةِ بَلْ مُقارنةً بِالنَّسقِ في مَجموعِهِ وَهَذَا يَدُلُّ علَى مَيْلِ الدُّولِ الطَّبيعِيّ إلى أنْ تَصِيرَ أقْوَى وَإلى التَّأثيرِ فِي الوَسطِ الذِي تَشْغَلُهُ مَعَ الدُّولِ الأخْرَى. (Charillon, 2002, pp 143-147)

لاَ مُحاكاةَ، بِنَاءً علَى مَا أوردناهُ آنِفاً، فِي أنَّ العالمَ الذِي نَعِيشُ فيهِ، بِالنِّسبةِ إلى الواقِعيينَ، تُحَرِّكُهُ قِوَى مُتَجذِّرةٌ فِي الطَّبيعةِ البَشريّةِ وَتُعبِّرُ عَنْ عالَمٍ مِنَ المصالحِ المتَعارِضةِ بِصفةٍ مُستمرةٍ وَالمتَصارِعةِ عَادةً وَفِي قَلبِ هَذَا العَالَمِ الصِّراعيّ يَغدُو التَّنْظيم وَالنِّظامُ ليسَا شَيئاً آخَرَ غَير تَوازُنٍ مُؤقتٍ. (Morgenthau, 1948, pp 3-4) وَيُوكِدُ جون ميرشايمر أنَّ الدُّولَ فِي حَالةِ الفَوضَى هذهِ تَفْقِدُ فِيمَا بينَهَا الثِّقةَ وَنَتيجةً لِذلكَ يُصْبِحُ الأمْنُ أمْراً ظَرفيّاً. (Mersheimer, 1990, pp 5-56)

4. خاتمة

نَخُلصُ، مِنْ وَجْهٍ، فِي هذهِ الورقةِ البَحثيّةِ إلى أنَّ مَفْهُومَ القُوةِ لَدَى مُورغانتو يَستَمِدُ جُذوُرَهُ مِنَ العَديدِ مِنَ الروافدِ التّاريخيّةِ وَالفلسفيّةِ وَالتّأمليّةِ، إلا أنَّ نيتشه يَبقَى رَافِداً لاَ يُمكِنُ التَّغاضِي عَنْهُ إذَا مَا أردنَا أنْ نَقِفَ علَى أصُولِ المقاربةِ الواقعيّةِ لدَى مُورغانتو بِخاصَّةٍ وَالواقعيينَ بِعَامّةٍ. معَ ذَلكَ لَمْ تَكنْ قِراءةُ مورغانتو لآثارِ نِيتشه قراءةً بَبَغائيّةً، بَلْ قِراءةً إبْداعِيّةً تَفتحُ الفلسفةَ النيتشويَّةَ علَى حَقلٍ عِلميٍّ حَديثٍ وَتَدفعُ بِالنَّظرةِ التَّدافعيّةِ وَالمقاربةِ القَوَويّةِ لِلْفِعلِ السِّياسيّ إلى آفاقٍ جَديدةٍ.

وَنَنتهِي، مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، إلى أنَّ القُوةَ، بِمَا هِيَ قُوةٌ دَافِعةٌ أو عِلةٌ فَاعلةٌ وَغَائيةٌ فِي الفِعلِ الوُجودِيّ وَالسِياسيّ، لَتُعْتَبرُ مَقُولةً تَفْسيريّةً بالغةِ المصْداقِيّةِ، على الرُّغمِ مِمّا يَعْتَورُهَا مِنَ نواقِصَ، تَسْمَحُ بِتَفسيرِ الكَثيرِ مِنَ الظَّواهرِ الاجْتِماعيّةِ وَالسِّياسيّةِ بَلْ تُتِيحُ، كَمَا هُو الحالُ بِالنِّسبةِ إلى نيتشه، تَفْسيرَ مَا يَعْتَمِرُ فِي الوُجُودِ

بِعَامّةٍ مِنْ فَعاليّاتٍ وَنَزعَاتٍ، ذَلكَ أنَّ الوُجُودَ عِندَهُ غَريزةٌ لاَ تَنْفَكُ عَنِ النُّزوعِ إلى القُوةِ أكَانتْ رُوحانيّةً أم مَاديّةً وَلاَ تَبرحُ تَتَطلَّعُ إليهَا، وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ مَنْطِقَ الصِّراعِ وَأونطولوجيَا التَّنازُعِ مِنْ جَانِبٍ، وَعَرضِيَّةَ التَّوازُنِ وَظَرفيّةَ الانْسِجامِ وَهَشَاشةَ السَّلامِ مِنْ جانبٍ آخَرَ. مَعَ ذلكَ، لاَ يَنبغِيَنَّ أنْ نَتَخِذَ ذلكَ ذَريعةً إلى فَصْلِ أخْلاقيّاتِ التَّقدُّمِ الراميةِ إلى تَهذيبِ الطَّبيعيّ وَتجويدِ الثَّقافيّ عَنِ مَنْطقِ الفِعلِ البَشريّ بِمَا هُو المرجِعُ الذِي يُنَاطُ بهِ تَغْيِيرُ الواقعِ بَدَلَ الاكتفاءِ بِفَهمِهِ.

5. قائمة المراجع:

Art,Robert J. and Waltz, Kenneth N. (dir).(1983). *«Technology, Strategy, and the Uses of Force»,In The Use of Force*. Lanham, MD : University Press of America.

Art, Robert and Waltz, Kenneth N. (1988).*The Use of Force: Military Power and International Politics.* University Press of America.

Charillon, Frédéric.(2002). *Politique Étrangère: Nouveaux Regards* .Paris: Presse de Science Po.

Deleuze, G. (2006). *Nietzsche et la philosophie*. New York: Continuum.

Frei, C. (2001). Hans J. Morgenthau: *An Intellectual Biography*. Baton Rouge: Louisiana State University Press.

Greg, Rüssel.(1990). *Hans J. Morgenthau and the Ethics of American Statecraft.* Baton Rouge: Louisiana State University Press.

Kaplan, Morton A .(1957). *System and Process in International Politics*. New York, Wiley.

Macleod, Alex.O'Meara,Dan. dirs.(2007).*Théories des Relations Internationales. Contestations et Résistances*. Montréal: Édition Athéna.

Mearsheimer, John J.(2001). *The Tragedy of Great Power Politics* . New York, Norton.

Michael J. Smith, (1986). *Realist Thought from Weber to Kissinger*. Baton Rouge: Louisiana State University Press.

Martin, Griffiths. (1995) *Realism, Idealism and International Politics: A Reinterpretation.* London: Routledge

Morgenthau, H. (1993*). Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace*. New York: McGraw Hill.

Morgenthau, H. (1947). *Scientific Man Vs. Power Politics*. Londres: Latimer House.

Nietzsche, F. (1993). *Œuvres, I, II*. Paris, Robert Laffont.

Nietzsche, F. (2000).*Basic Writings of Nietzsche*. New York: Random House.

Nietzsche, F. (1969). *Thus Spoke Zarathustra*. trans. R.J. Hollingdale. New York: Penguin Books.

Nietzsche, F. (1968). *The Will to Power*. W. Kaufmann and R. J. Hollingdale, trans. New York, Vintage.

Petersen, U. (1999) *"Breathing Nietzsche's Air: New Reflections on Morgenthau's Concepts of Power and Human Nature"*. Alternatives, 24.

Peter, Gellman.(1988). *"Hans J. Morgenthau and the Legacy of Political Realism. "*.Review of International Studies 14.

Toscano, A. (2006). *The Théâtre of Production: Philosophy and Individuation Between Kant and Deleuze*. New York: Palgrave Macmillan.

Tellis, Ashley J.(2005).*India as a New Global Power: An Action Agenda for the United States*. Carnegie Endowment for International Peace.

Waltz,Kenneth N.(1979). *Theory of International Politics*. New York : McGraw-Hill.

Waltz, Kenneth N.(1959*). Man, the State, and War*. New York: Columbia University Press.

المقال:

Frankel, B. (1996). *Restating the realist case: An introduction*. Security Studies, vol 5, n3.

Huntington,S.(1996*). «Why International Primacy Matters»*. n° 4. 68-83.

Lieber,R(1993*).«Existential Realism After the Cold War»*. Washington Quarterly, Vol 16, 153-168.

Mearsheimer,J .(1990*)."Assessing the Conventional Balance*: The *3:1 Rule and Its Critics"*, International Security, vol,13, (n 4), Security, vol. 15, (n° 1), 56-62.

Mearsheimer,J .(2005).*«Better to Be Godzilla than Bambi »*, Foreign Policy, (N 146), 47-48.

Mearsheimer,J.(1994-1995*).«The False Promise of International Institutions»*, International Security, vol. 19, (n 3),5-49.

Mearsheimer,J.(1990*).«Back to the Future : Instability in Europe After the Cold War»*, International Security, Vol. 15, (n1). 5-56.

Milner , H.(1991). *«The Assumption of Anarchy in International Relations Theory: A Critique»*, Review ofInternational Studies, vol, 17. 67—85.

Morrow ,James D.(1985).*A Continuous-Outcome Expected Utility Theory of War"*, Journal of Conflict Resolution, vol 29, (n 3), 473-502.

Morrow , James D.(1988). *« Social Choice and System Structure in World Politics»,World Politics*: A Quarterly Journal of International Relations, 41 (1), 75-97.

Murray, A. J. H. (1996*)."The Moral Politics of Hans Morgenthau, "*, The Review of Politics,Vol 58, (n1).

Mueller, J.(1995).*Le concept de puissance et la politique internationale depuis la fin de la guerre froide*, Études internationales, Vol 26, (n 4),711–727.

Morgenthau, H, (1971). *Nought and Action in politics*, social Research ob, (n19).

Riker,William H.(1964*).«Some Ambiguities in the Notion of Power»*, American Political Science Review, vol 58, (n 2). 341-349.

Robert, Jervis. (1994). *"Hans Morgenthau, Realism, and the Scientific Study of International Politics"*, Social Research, vol 61, (n 4). 853-873.

Venesson Pascal.(1998). *Les relations internationales dans la science politique aux Etats-Unis*, In: Politix, vol 11, (n 41),176-194.